آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية
بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
دبي - ص.ب. ٥٥١٥٦
هاتف ٢٦٢٤٩٩٩ ٤ ٩٧١+
فاكس ٢٦٩٦٩٥٠ ٤ ٩٧١+
دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني:info@almajidcenter.org

السنة الثامنة عشرة : العدد الحادي والسبعون - شوال ١٤٣١ هـ - سبتمبر (أيلول) ٢٠١٠ م

رقم التسجيل الدولي للمجلة

ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

المجلة مسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم ٣٤٩٣٧٨

هيئة التحرير

مدير التحرير
د. عز الدين بن زغيبة

سكرتير التحرير
د. يونس قدوري الكبيسي

هيئة التحرير
أ.د. حاتم صالح الضامن
د. محمد أحمد القرشي
د. أسماء أحمد سالم العويس
د. نعيمة محمد يحيى عبدالله

الاشتراك السنوي

	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهم	١٠٠ درهم
الأفراد	٧٠ درهماً	١٠٠ درهم
الطلاب	٤٠ درهماً	٤٠ درهماً

المقالات المنشورة على صفحات المجلة تعبر عن آراء كاتبيها ولاتمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو المركز الذي تصدر عنه

يخضع ترتيب المقالات لأمور فنية

الفهـــــرس

الإفتتاحية

إشكالية النص الأدبي بين أسس الاختيار وطرق التقويم

د. علي عبد القادر الطويل ٤

المقالات

فهم السنة في صناعة جيل القدوة

د. سهى بعيون ٦

الفتوى بين النظرية والواقع في باكستان

أ.د. عطاء الله فيضي ٢٢

متغيرات الأنشطة الاقتصادية للمرأة المغربية

في مرحلة الحماية الفرنسية

د. حسنة مازي ٤٩

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

د. عبد الوهاب محمود الكحلة ٦١

من لسانيات الجملة إلى لسانيات الخطاب

أعمال أحمد المتوكل أنموذجا

راضية بن عريبة ٨٣

بقية ديوان الخريمي

عبد الرازق حويزي ٩٨

حميد الأرقط – حياته وما تبقى من شعره

د. محمد أحمد شهاب ١١٨

صرخات الاستغاثة النسوية الثلاث كان لها ما بعدها

في تاريخنا

د. ظهور أحمد أظهر ١٣٧

إسهام القيروان في الحركة الصوفية

محمّد بن الطيب ١٥٠

الملخصات ١٨٦

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

الدكتور: عبد الوهاب محمود الكحلة
كلية التربية – قسم القرآن الكريم –
جامعة الموصل

توطئة وتمهيد:

العربية لغة الكتاب العزيز وبها تبوأت المنزلة العليا بين ألسنة الناس، وسيبقى فيها الكلام فسيحاً، والبحث مستمراً عما تخفي من ركازها وكنازها وظواهرها ومطوياتها. ومن المقرر أن كل جماعة من الجماعات البشرية قد تواضعت على تحديد لغة التفاهم بينها، واصطلحوا في كتاباتهم على ربط صورة كل حرف من الحروف الهجائية بصوته الدال عليه، وكذلك اصطلح العرب، ولما كانت الأصوات غير محدودة لذلك لم يستطيعوا أن يضعوا لكل صوت حرفاً ، فاقتصروا على وضع الحروف الهجائية التسعة والعشرين لتدل بصورتها على الأصوات الظاهرة دون الخفية منها لئلا ينوء أهلها بتعلمها.

قصور الحروف:

الأصوات الخفية كثيرة فلو حاول كاتب أن يكتب اللهجات مما يجري على لسان العوام لأعوزته الحروف الهجائية المحدودة عن تصوير ما يسمع من أصوات ونبرات، ولو كتب لقرأها غيره بغير أصواتها التي أرادها وسمعها الكاتب، وقل مثل هذا في اللهجات العربية المنقولة إلينا من أقوالهم وأشعارهم، فإن منها ما لو سمعناه من أفواههم لكان على غير ما نقرؤه مما هو مسطور ومتوارث بين أيدينا مما قد كتبوه في الجاهلية وعلقوه على جدار الكعبة.

خضوع اللغة للتطور:

والتطور والتبدل من سنن الحياة المقررة، واللغة أقرب للخضوع لهذه السنة، ومن المقرر لدى علماء الاجتماع أن للبيئة تأثيراً على حياة الساكنين فيها، ويظهر على الإنسان أثر بيئته على لسانه، فصوت البدوي من أهل الوبر هو غير صوت المدني من أهل المدر، فالبدوي أمامه الفضاء الواسع فيقتضي أن يكون صوته أندى. والمدني محصور بصوته بين جدران المنازل، ويختلف عنهما ساكن الجبل وعمن بيئته شاطئ البحر.

ولوجوب التقارب بين الأصوات واللهجات في حديث الناس اهتم القرآن الكريم بطريقة أداء الصوب، فأدب القادمين من البادية بأصواتهم المرتفعة فقال ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

ٱلنَّبِيِّ ﴾[1] ليغض البدوي من صوته الأجش، ومدح الذين يغضون أصواتهم، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2]. ولم يغفل لقمان عن هذا في توجيه نصائحه وهو يعظ ابنه فقال ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾[3].

تفرع اللغات وتباينها:

وتتباين كل لغة عن غيرها بحسب ما يطرأ عليها من تطور فهي أشبه في تفرعها بجذع شجرة امتدت أغصانها المتفرعة، واشتدت واستغلظت لتكون أقرب إلى الجذع الأصل فإذا بالفرع قائم بنفسه وكأنه الأصل وصارت كل جماعة أمة قائمة لوحدها، وهكذا نشأت اللغات وتباينت. والذي يزيد من تباعد اللغات عن بعضها بعد الديار، وقلة التواصل والتزاور بين الأقوام، فكلما انزوى القوم في ديارهم وتباعدوا على وجه الأرض زادت سعة الشقة بين الألسنة، فازدادوا بعداً عن التفاهم مع الآخرين، وقد وجد ذو القرنين في سياحته مثل أولئك القوم، ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾[4].

وللتباعد درجات، فاختلاف اللهجتين بين قريتين من مدينة واحدة أقل مما بين مدينتين متجاورتين كالبصرة والكوفة مثلاً، وهذه أقل مما بين قطرين متباعدين كالعراق ومصر والجزائر، وهذه أقل مما تكون عليه اللغات إذا تطاول عليها مرور الزمن، كالمضرية والحميرية،أو مرور القرون كالاختلاف بين العربية والعبرانية وهكذا يزداد الاختلاف حتى يبلغ أقصاه.

أثر الاختلاط بين الأقوام:

أما الاختلاط فهو من أكبر ما يحقق قانون (الغلبة للأقوى) وقد تهيأ ذلك للعرب حيث كانت مكة قبلة الأقوام يفدون إليها فيتأثرون بلغة أهلها ويجرونها على ألسنتهم، وقد أدركوا قديماً أثر هذا الاجتماع بين الناس فأقاموا في المربد وعكاظ ومجنة وذي المجاز مؤتمرات أيام قدوم الناس للحج لتحقيق التمازج والاختلاط بينهم، ودعتهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمبادهة بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، وراحوا يعلقون كلامهم على جدران الكعبة، فكان لذلك أثر في تهذيب اللغة وتوحيد الكلمة حيث تنشرها القبائل الوافدة فتنتشر في القبائل لهجتهم، وبذلك تندثر وتتلاشى ألفاظ وضعها أهلها لأنفسهم مما قد يجهلها غيرهم. ولذلك أحرق سيدنا عثمان الصحف ذات القراءات المختلفة وعمل على استنساخ المصحف ونشره بين المسلمين في مدنهم البعيدة كاليمن والشام والكوفة والبصرة ومكة[5] ليجمعهم على قراءة واحدة.

ومن فوائد فريضة الحج للناس وهم قادمون من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم تحقيق وسيلة التفاهم بينهم بلغة واحدة، ولعل أسمى منفعة هي تحقيق رابطة اللغة الواحدة، ولئلا تتشتت الألسنة وتزداد شقة الجهالة وحد الله لسان الأمة فألزمهم العبادة بلغة القرآن، ولغة العبادة هي أقوى سبيل إلى توحيد اللسان. وما هذا البحث إلا جمع لأشتات متفرقات لإبداء جانب من جوانب تلك المنزلة.

عملية الكتابة:

عملية الكتابة هي تصوير الأصوات بصور الحروف التي تعارف أهلها عليها، وصورة كل حرف لها في المخيلة دلالتها، واللغة العربية قد بنيت على تسعة وعشرين حرفاً، ولكل حرف صوته ومخرجه. وقد فسر العلماء العملية العقلية في الكتابة والقراءة، فالحواس الخارجية -ونحدد ههنا

حاسة البصر- ترصد ما في المخيلة فتفسر رموز الكتابة ودلالتها على معناها وصوتها في مخيلته فيكشف العقل عن صوت حروفها بعد أن حفظت في المخيلة من قبل بالتعلم فإذا بها سبيل من سبل نقل المعرفة وتبادل الأفكار بين البشر[٦].

وسبيل اكتساب المعرفة من الكتابة بإدراك دلالة الحروف المرسومة على أصواتها، والنظر الحصيف في اللغة العربية يقفنا على مظاهر كثيرة لها أصوات لا تدل حروفها المرسومة عليها، وقد لا يوجد لها حرف يدل عليها،ومن هنا كان السبيل الأقوم أن تتلقى اللغة مشافهة لعجز الحروف المعدودة وهي محدودة عن الإحاطة بالأصوات العديدة ولو رسموا لكل صوت حرفاً لناءت اللغة بحروفها.

وفي تفسير الظواهر اللغوية التي سنعرض لها في هذا البحث يتبين اختلاف الألسنة في النطق بالكلمة والكشف عن أسباب الاختلاف في اللهجات.

اختلاف اللهجات:

إن الظواهر الصوتية كثيرة وأكثرها ناشئ من اجتماع الحروف المتقاربة، أو من تلاقي الحروف المتنافرة أو الثقيلة أو الكلمة المقروءة بغير حروفها وحركاتها فهي أصوات لم يرسموا لها حروفاً تدل عليها كالإمالة والروم والإشمام وتسهيل الهمزة وغيرها، وقد أفاض علماء اللغة في الكلام عن كل ظاهرة من هذه الظواهر إلا أنهم لم يتعرضوا إلى حاجة اللغة إلى حروف لتدل على تلك الأصوات في هذه الظواهر اللغوية، وليس هذا النقص بالأصوات ثلمة في العربية فإن من يتتبع الكلمات في الألسنة المختلفة يجد ابتعاد كثير من الأصوات عن صورة حروفها.

والغاية من هذا البحث أن نحضّ على تلقي اللغة مشافهة تعضيداً لتعلمها قراءة، وقديماً أنكروا على من يعتمد أخذ العلم من الصحف بنفسه فحكموا على أوهامه بالتصحيف.

هذا وقد أوجزنا عند عرض الظواهر اللغوية فيما يجب تفصيله فجاء البحث مجملاً التزاماً بتحديد البحث بصحائف محدودة إذ لا بد مما ليس منه بد.

تفسير بعض الظواهر اللغوية

ظاهرة الإمالة:

لكل حرف صوته بحسب ما يعتوره من سكون أو حركة أو حرف مد، فتكون له أصوات مختلفة، كصوت الميم مثلاً في نحو (لم يعلمني، وأنت تعلمني، وهم يعلموننني). والحركة هي الوسط بينها، ومن هنا نشأ ميل اللسان إلى الحالة الوسطى لسهولتها.

ومن سبل التقريب بين الأصوات في الكلمة إمالة الألف إلى الياء. فالألف في صوتها استعلاء واستطالة، واللسان يتصعد عند النطق بها ويستعلي، والياء فيها تسفل وانحدار، وليتقارب الصوتان أمالوا بالألف نحو الياء بفتحة قريبة من الكسرة، فالفتحة مجتزأة من الألف، والكسرة مجتزأة من الياء.

القصور عن تصوير الامالة:

رسم الكلمة ممالة عسيرة التنفيذ في الكتابة لاعتماد ذلك على صوت ليس له صورة في حروف المعجم فهي ليست بكسرة محضة ولا بفتحة محضة، ولا يصح وضع كسرة على ما قبل الألف للإشعار بالإمالة إذ الحرف لا يجتمع عليه حركتان.

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

وللإمالة دواع كثيرة منها التخفيف وميل اللسان إلى السهولة، وقد يتحقق بالإمالة معان في الكلمة الواحدة مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا ﴾[٧]. ففي فتح الميم مع الألف نقول (مَجراها) وهو اسم مكان لجري السفينة من الفعل الثلاثي (جرى مَجرى). وفي ضم الميم مع الياء نقول (مُجريها) وهو اسم فاعل من الفعل الرباعي (أجرى مجري) وهو الله تعالى، وإذا قرئ بفتح الميم، و إمالة الألف مع كسر الراء يتحقق اسم الفاعل واسم المكان معاً فتكون القراءة (بسم الله مَجريها) [٨] قد جمعت الصيغتين.

وللقراء نصيب وافر من الإمالة في آيات الكتاب يؤدونها بأصوات دقيقة معروفة والإمالة قد تكون متوسطة أو شديدة وهي المحضة وتسمى بالإضجاع، وفي قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾[٩] أمال بعضهم الألف إمالة (بين بين) [١٠] وأمالها بعضهم إمالة بليغة[١١] وفي قراءة (مليك يوم الدين) [١٢] ما يشفع له في إمالته البليغة، وأمثلتها لا تحصى عداً لكثرتها في كتاب الله العزيز.

وللإمالة في مصنفات اللغة تفصيل لمسائلها وبيان لأحكامها ومواضع جوازها، والحروف المانعة لها، ولكن لم يتعرضوا إلى حاجة الكلمة إلى حرف يصور تلك الظاهرة للدلالة عليها فهي تتلقى مشافهة من الأفواه؛ إذ لا صورة مرسومة لها من الحروف.

صوت الميم وقوتها:

الميم حرف من الأحرف الشفوية، ومخرجها بانطباق الشفتين وقد تصحبها غنة من الخيشوم. وللميم غلبة على الحروف المجاورة لها لشدة نبرتها، فالباء تقلب إلى ميم إذا تقدمت عليها نحو قوله تعالى ﴿ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ [١٣] فتقرأ (إركم معنا)، ويصحب هذا الإدغام غنة معروفة.

وإذا تقدمت الميم ظهر صوتها جلياً مع الباء مثل قوله تعالى ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[١٤] ولغلبة صوت الميم تقلب النون ميماً إذا تقدمت عليها نحو ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ﴾[١٥] وتقرأ (مم مال الله) وهذا أحد حروف الإدغام التي يقررها القراء وتصحبها غنة كاملة، وقدروها بحركتين، والغنة صوت يخرج من الخيشوم وله مقدار محدد لا يتجاوزه عند أدائه، وليس له صورة مرسومة في الخط، وإنما يتلقى مشافهة كغيره من الظواهر اللغوية التي نحررها في مسائل هذا البحث.

ولغلبة صوت الميم وتمكنه في الشفتين يظهر صوتها جلياً مع باقي الحروف، وأشد إظهارها إذا تلاها الواو أو الفاء[١٦] نحو قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [١٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [١٨].

صوت النون وضعفها:

النون هي أكثر الحروف انتشاراً في اللسان، وتلفظ نوناً ساكنة في الاسم المنون وأعرضوا عن رسمها فهي تلفظ ولا تكتب، وفي صوتها ضعف، وتصحبها غنة من الخيشوم لازمة لها وقد تكون خفيفة لا تكاد تسمع.

ولضعف النون أخفوا صوتها مع نصف الحروف الهجائية وهي خمسة عشر حرفاً. فلا ينطق بها إذا تقدمت على هذه الحروف إلا بصوت خفي غير مسموع، وهو أشبه بالإشمام فهو صوت متوسط بين إظهار النون وإدغامها مع غنة تصحب هذا الإخفاء وهذا الصوت يتلقى مشافهة لأن رسم الحرف العربي قصر عن تصويره.

وإذا تطرفت النون -أي وقعت في آخر الكلمة-

زاد ضعفها ولذلك تقلب إلى حرف يماثل ما بعدها ثم تدغم معه، ويتحقق ذلك مع الحروف الستة (يرملون) وأطلقوا على هذه الظاهرة (الإدغام) نحو ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ ﴾ [١٩] فتقرأ (مي يعمل سوأي يجز به) ويصحب إدغام النون غنة مستطالة ويقدرها القراء بحركتين وتكون بإدغام كامل مع الحرفين(ن-م) أو بإدغام ناقص مع الحرفين (و-ي).

ومما يدل على ضعف النون أن الميم بقوتها تتغلب عليها وذلك إذا ولي النون حرف الباء نحو (أنبياء) [٢٠] فتقرأ (أمبياء) فاجتمع مع ضعف النون قوة الميم وغلبتها.

وهذه الظواهر لا ترسم بحروف مقروءة، وإنما سبيلها العرف وتتلقى بالمشافهة والدربة بعد التعلم.

صوت الهمزة:

الهمزة أول الحروف الهجائية التسعة والعشرين وهي أحد حروف الحلق الستة،فهي من أقصى الحلق مخرجاً، وأعلاها نبرة في الصدر، وأثقلها عند النطق بها محققة[٢١] ولضعفها هذا احتالوا لها بشتى ضروب التسويغ للابتعاد عن ثقلها عند النطق بها لذلك طرأ عليها كثير من الظواهر اللغوية كظاهرة الحذف والقلب والتسهيل والإشمام.

ويمكن النظر إلى أحكامها من عدة مظاهر سردها علماء اللغة والصرف والصوت، ولنستعرض بعض مسائلها.

اجتماع الهمزتين:

باجتماع الهمزتين في كلمة واحدة يثقل الكلام ولذلك التزموا قلبها إلى حرف مد يناسب حركة ما قبلها نحو ﴿ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ ﴾ [٢٢] وأصله (أأتي) ونحو ﴿ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ ﴾ [٢٣] وأصله (إإمان) ونحو ﴿ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ ﴾ [٢٤] وأصله (أأذن) ونحو(إيتزر) وأصله(إإتزر)، ويجوز أن تقول (أتّزر) فيمن يدغم الهمزة في التاء[٢٥] قال ابن الأثير في النهاية: وقد جاء في بعض الروايات (وهي متزرة) وهو خطأ لأن الهمزة لا تدغم في التاء[٢٦] فالخلاف في هذه المسألة ظاهر جلي[٢٧].

الهمزة الساكنة:

ظاهرة قلبها:

إذا وقعت الهمزة ساكنةً سهل على اللسان قلبها الى حرف يجانس حركة ما قبلها نحو: ﴿ قَالُوٓاْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ ﴾ [٢٨] فتقلب إلى ياء فتقرأ (جيت بالحق) [٢٩] وفي (يؤمنون) [٣٠] تقلب إلى واو فتقرأ (يومنون) [٣١] وفي قوله ﴿ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ ﴾ [٣٢] تقلب إلى ألف فتقرأ (براس أخيه) [٣٣].

ظاهرة حذفها:

وإذا كانت همزة وصل كانت أقرب إلى الحذف نحو قوله تعالى ﴿ فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ ﴾ [٣٤] فتقرأ (الذي تمن أمانته) [٣٥] ونحو قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ ﴾ [٣٦] فتقرأ (إلى الهدى تنا) وهناك تخريج أخر على أن الهمزة ههنا قلبت ألفاً وباجتماع الالفين حذفت الأولى منهما وفيه تعسف.

ظاهرة حذف الهمزة المتحركة:

الهمزة المتحركة لها حالتان إما أن يكون ما قبلها ساكناً أو متحركاً، وفي كلتا الحالتين أصوات في اعتمال اللسان بالهمزة، وفي جميعها يجوز حذفها:

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

فإن كان قبلها ألف -والألف لا تقبل الحركة- كقولهم (ما أحسن الصبر) جاز حذف الهمزة فتقول (ما حسن الصبر).

وإن كان قبلها حرف صحيح ساكن وهو يقبل الحركة جاز حذف الهمزة ونقل حركتها إليه مثل ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾[٣٧] فتقرأ (قل عوذ)[٣٨] وكقوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾[٣٩] فتحذف الهمزة من (الآن) وتنقل حركتها إلى ما قبلها فتقرأ (قالوا لان)[٤٠] ومثال حذف الهمزة من نحو (الأحمر والأبيض) قولهم (الفرس الحمر، والجمل البيض) بفتح اللام فيهما، وكقول الشاعر[٤١]:

قد كنت تخفي حب سمراء حقبةً

فبح لان منها بالذي أنت بائحُ

وأصلها (فبح الآن).

ومن أمثلة حذفها ونقل حركتها إلى الساكن قبلها فعل الأمر (اسأل) فتصير (سل)، والذي سهّل حذف الهمزة ههنا أن الفعل إذا كان غير مسبوق بحرف عطف تحذف معه الهمزة نحو قوله تعالى ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[٤٢] وقوله ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾[٤٣].

أما إذا سبقها حرف عطف بقيت الهمزة في الفعل وهذه من دقائق لغة القرآن نحو قوله تعالى ﴿ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[٤٤]، وقوله ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[٤٥] وقوله ﴿ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾[٤٦].

وجاز حذفها إذا سبقها حرف متحرك كقوله تعالى ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴾[٤٧] فأجازوا حذفها فقرئ (ليلاف قريش)[٤٨] ولا يمتنع في القياس قلبها إلى ياء لمجانسة حركتها فتصير (ليلاف) بياءين.

والتزموا حذفها في الفعل المضارع (يرى) والأصل (يرأى) فنقلت فتحة الهمزة إلى الراء. وكذلك حذفوا الهمزة من ماضيه بشرط أن يسبق بهمزة الاستفهام نحو قوله تعالى ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾[٤٩] فتقرأ (أريت الذي يكذب)[٥٠] فمجيء همزة الاستفهام سهل إلقاء همزة الفعل، وقد ورد ذلك في كلام العرب كثيراً، قال الدبيري[٥١]:

أريتك إن منعت كلام ليلى

أتمنعني على ليلى البكاءَا

والأصل: أرأيتك. أو تسبق بـ(هل) كقول الشاعر[٥٢]:

صاح هل ريت أو سمعت براع

رد في الضرع ما قرى في الحلابِ

أو تسبق بـ(من) الاستفهامية، قال الشاعر[٥٣]:

ومن را مثل معدان ابن يحيى

إذا هبت شآمية عريه

أصله: (رأى).

ويغلب حذفها إذا وقع بعدها حرف مد تحاشياً من اجتماع حرفي علة متماثلين نحو قوله تعالى: ﴿ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾[٥٤] فتقرأ (المستهزون) وبعضهم أجاز مراعاة ما قبلها فقلبها إلى ياء فقرأ (المستهزيون) وبكل هذه الوجوه وردت القراءات[٥٥].

ومن أمثلة هذا الحذف قولهم (ويلمه) وإنما أصله (ويل لأمه)[٥٦] فحذفوا الهمزة ثم حذفوا

إحدى اللامين بعد ذلك ، فمن حذف اللام الأولى قال (ويلِمه) بكسر اللام، ومن حذف الثانية قال (ويلمه) بضم اللام.

الهمزة المتطرفة:

يكثر قلبها إلى حرف مد يجانس حركة ما قبلها مثل ﴿ كُفُوًا ﴾ [٥٧] والأصل (كفؤاً) أو إلى حرف يجانس حركتها إن كان ما قبلها ساكناً نحو (نساؤكم، ونسائكم، ونساءكم) فتقول (نساوكم) بواو مضمومة، و(نسايكم) بياء مكسورة، و(نساكم) بحذف الهمزة ، ولا يجوز قلبها إلى ألف لئلا يجتمع الساكنان فيها.

ومن أمثلة المتطرفة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾[٥٨] وأصلها (نبيؤهم)، وقرئ بها[٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً ﴾[٦٠] فتقلب الهمزة ياء فتقرأ (خطية) [٦١].

وإذا اجتمعت همزتان من كلمتين جاز إبقاؤهما بتحقيق النطق بالثانية نحو قوله تعالى: ﴿ ءَأَنذَرْتَهُمْ ﴾[٦٢] وجاز قلبها إلى حرف يناسب حركتها وهي الألف[٦٣]، أو تقلب ياء إذا كانت مكسورة نحو ﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾[٦٤] فتقرأ (أينك) [٦٥]. وقد يجب الإشمام في حركتها إذا أدى قلبها إلى اختلال في وزن الشعر نحو قوله[٦٦]:

أأن رأت رجلاً أعشى أضر به
ريب المنون ودهر متبل خبلُ

وكقول الآخر[٦٧]:

أأن زم أجمال وفارق جيرة
وصاح غراب البين أنت حزينُ

فالهمزة في قوله (أأن) مفتوحة ولا يجوز تسكينها لئلا يختل الوزن وإنما يجوز فيها الإشمام وهو حركة مختلسة ومختفاة لضرب من التخفيف[٦٨].

وإذا التقت همزتان من كلمتين والأولى منهما متطرفة مثل ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾[٦٩] و﴿ لِقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[٧٠] جاز قلب الثانية ألفاً فتقرأ (فقد جاء اشراطها) أو حذف الأولى منهما، فتقرأ (فقد جا أشراطها) [٧١] وقرئ بالوجهين قوله تعالى ﴿ لِقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾[٧٢].

قلب الهمزة عيناً:

ومن مظاهر تخفيف الهمزة أنهم يميلون بها إلى (صوت العين) وتظهر هذه في لهجة بني تميم وقيس وأسد ومن جاورهم وتسمى (العنعنة)[٧٣] فيقولون ﴿نَشْهَدُ عنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ والأصل (أنك) فالهمزة والعين متقاربتان وكلتاهما من حروف الحلق ولكن العين أخف من الهمزة نطقاً فمالوا بها إليها، ولذلك بدأ بها الخليل بن أحمد الفراهيدي كتابه وسماه (العين).

قلب الهمزة نوناً:

ومن صور محاولتهم الابتعاد عن ثقل الهمزة ميلها إلى (صوت النون) فقالوا في النسب إلى بهراء (بهراني) -وبهراء حي من أحياء اليمن- وقد يقولون (بحراني) بنقل صوت الهاء إلى حاء، وكلتاهما من حروف الحلق[٧٤].

وهاتيكم ظاهرة أخرى للهمزة فكما حذفوها تخفيفاً فقد زادوها في الكلام وذلك بقلب حرف المد همزة إما ساكنة مثل (مؤسى) [٧٥] أو مفتوحة كما في قوله تعالى ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[٧٦] فأبدلوا الألف همزة وفتحوها تحاشياً من اجتماع ساكنين فتقرأ (الضألين) [٧٧] ومثلها قوله تعالى:

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[٧٨] فتقرأ (جأن)[٧٩].

وقد وردت زيادة الهمزة كثيراً في شعر كثير عزة ومن ذلك قوله[٨٠]:

وللأرض أما سودها فتجللت

بياضاً وأما بيضها فاسوأدتِ

يريد بها (اسوادت).

وقوله فيها: (إذا ما العوالي بالعبيط احمأرتِ)

يريد بها (احمارت)، وفي بيت له آخر:

وأنت ابن ليلى خير قومك مشهداً

إذا ما احمأرت بالعبيط العوامل

قال ابن جني: (وهذا الهمز الذي تراه أمر يخص الألف دون أختيها) ، أقول: قد فات ابن جني جواز همز الواو كما في (مؤسى) وقد أثبته صاحب لسان العرب كما قدمناه.

وهكذا تمت أطوار بناء هذه اللغة العربية بقواعدها أو بضوابطها التي مهدت السبل في اختيار الصوت لتحقيق المعنى الذي يقصده المتكلم.

الإدغام:

ويراد بالإدغام اجتماع حرفين متماثلين أو متقاربين في المخرج أولهما ساكن فمن أمثلة المتماثلين إدغام اللامين في ﴿ هَل لَّكُم ﴾[٨١] أو النونين ﴿ مِّن نِّعْمَةٍ ﴾[٨٢] أو التاءين ﴿ رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾[٨٣] أو الكافين ﴿ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ ﴾[٨٤] أو الفاءين ﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ﴾[٨٥] أو الباءين ﴿ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ﴾[٨٦] .

وهذا الإدغام قد يقتضي له صوتاً تصحبه غنة وذلك عند إدغام النون في حروف (ينمو) وهذه الغنة – وهي إحدى الظواهر اللغوية – ذات صوت لا حرف له يدل عليها.

ومن أمثلة الإدغام بين الحرفين المتقاربين الإدغام بين لام وراء بعدها لتقاربهما في المخرج، فكلتاهما تخرج من حافتي اللسان، وهما مشتركان في صفة الذلاقة والانفتاح والاستفال والجهر. لذلك يميل اللسان إلى ادغامهما عند اجتماعهما نحو قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[٨٧] فتقرأ (وقر رب) وهكذا في بقية الحروف المتقاربة. كاجتماع الحرفين (ت+د) نحو ﴿ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾[٨٨] فتقرأ (أجيبد دعوتكما)، والحرفين (د+ت) نحو ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ ﴾[٨٩] فتقرأ (قت تبين)، والحرفين (ث+ذ) نحو ﴿ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ﴾[٩٠]. فيقرأ (يلهذ ذلك)، والحرفين (ذ+ظ) نحو ﴿ إِذ ظَّلَمُوٓاْ ﴾[٩١] فتقرأ (إظظلموا).

وقد يجتمع الحرفان المتقاربان ويكون لأحدهما القوة فيتغلب على الحرف الأضعف سواء تقدم أو تأخر، فالطاء لقوتها يكون الإدغام لها سواء تقدمت نحو ﴿ فَرَّطتُّمْ فِى يُوسُفَ ﴾[٩٢] فتقرأ (فرطتم)، أو تأخرت نحو ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ ﴾[٩٣] فتقرأ (وقالط طائفة).

أو يتساويان في القوة (كالقاف والكاف) فكلتاهما مخرجهما من أقصى اللسان وما يحاذيه من الحنك الأعلى ومع أن للقاف استعلاء، وللكاف استفالة إلا أن تقاربهما أشد من تباينهما لذلك جاز أن يدغما معاً نحو قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾[٩٤]، وقوله تعالى ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾[٩٥] فقد يدغمان

بصوت كاف، أو يدغمان بصوت القاف، قرأ ابن كثير بالأولى، وقرأ أبو عمرو بالثانية[٩٦].

على أن هذا الإدغام ليس بإدغام خالص بين الحرفين، وإنما يختلس من صوت الحرف جزء منه، وكل هذا يؤدى بصوت لا تدل عليه الحروف المرسومة في الكلمة، وإنما قد يرمز له بالإشارات للدلالة عليه.

صوت الإدغام في المضعف:

المضعف قوي ونبرته شديدة على اللسان في نحو (غض بصرك، ومد يدك)، وهي تتفق مع لسان أهل البادية، لما فيهم من شدة وخشونة، فبنو تميم يميلون إلى هذه الشدة فيدغمونها. وأما فكُّ الإدغام ففي نبرته سهولة ويسر، وهو يتفق مع أهل الحضر، فأهل الحجاز يفكون الحرفين، وبلغتهم نزلت الآيات كقوله تعالى ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾[٩٧]، وقوله تعالى ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾[٩٨].

ظاهرة الوقف:

الوقف هو السكت على نهاية الكلمة إما لانقطاع النفس ثم استرجاعه، وإما لعارض منع من إدراج الكلام. ومن العوارض من إدراج القراءة محاولة الكشف عن جانب من المعاني التي يحتملها الكلام، كقوله تعالى ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ ﴾[٩٩]، فكلمة (على استحياء) يصح أن تتعلق بالفعل (يمشي)، أو تتعلق بالفعل (قالت)، فيتحقق باختلاف الوقف معنيان، فإن قرأت (فجاءته تمشي على استحياء) دل على أن الاستحياء كان من صفة المشي، أو تقف على قوله (تمشي) ثم تستأنف فتقرأ (على استحياء قالت إن أبي يدعوك) فالاستحياء صفة للقول، وهذا جانب من جوانب بلاغة القرآن في نظمه وتكشف في تلاوته بمراعاة الوقف وبنبرة الصوت.

إجراء الوصل مجرى الوقف:

السكون من مظاهر الوقف، وقد يسكنون الحرف في حالة الوصل، ليحقق المتكلم معنى يقصده في نفسه، وهذا من دقائق تفسير نبرات الصوت المختلفة عند النطق، كنحو قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[١٠٠] فيأتي باللام في (قال) ساكنة للإشعار بالوقف ثم يصل كلامه (ربي يعلم القول)، فـ(ربي) مبتدأ وخبره (يعلم القول)، وبسكون اللام يبعده عن وهم السامع بأنه فاعل لـ (قال). ولا يمتنع هذا الإجراء في الوصل في قوله تعالى ﴿ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾[١٠١]، فيجري السكون على تاء (كلمة) يجريها مجرى الوقف، ثم يصلها بكلمة (الله هي العليا).

ومن الأمثلة في إجراء الوصل على نية الوقف قوله تعالى ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[١٠٢] فقرئ (يخرج الخب في السماوات)[١٠٣] بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الباء قبلها، وإنما أخفي صوت الهمزة على نية الوقف ثم أُتمت القراءة (في السماوات).

ومن إجراء الوصل على نية الوقف مد الألف في (أنا) في قول الشاعر[١٠٤]:

أنا سيف العشيرة فاعرفوني

حميداً قد تذريت السناما

فتمطل معها الألف على حد ما تكون عليه في الوقف، والأصل أن تحذف الألف في الوصل فتقول (أنَ سيف العشيرة) ولكن الشاعر مد الألف، ليلفت السامعين مشيراً إلى فخره بشخصه وافتخاره

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

بمكانته فقال (أنا) وكأنه يريد الوقف، ثم وصل فقال (سيف العشيرة) وهذا المعنى لن يتحقق إلا بإثبات الألف التي يؤتى بها عند الوقف، وقد ذكر البغدادي شواهد كثيرة لهذه الظاهرة وقال: (وقد أجرت العرب كثيراً من ألفاظها في الوصل على حد ما تكون عليه في الوقف) ومن لم يلمح ذلك المعنى راح يعلل الكلام بغير وجهه، قال ابن جني في شرح تصريف المازني (أما الألف في (أنا) في الوصل فزائدة)، وقال بعضهم (إنها ضرورة الشعر) [١٠٥].

ومن الأصوات التي لا حروف لها أصوات (الهاء) ضمير المفرد الغائب ولها أصوات متباينة حسب حالتها، وتعتورها حركتان الضمة والكسرة، وتتحدد حركتها بحسب ما يسبقها، فاذا سبقتها ضمة أو فتحة كانت الهاء مضمومة، وإذا سبقتها ياء ساكنة أو كسرة كانت الهاء مكسورة.

والهاء في كلتا حالتيها المضمومة والمكسورة إذا تلاها حرف ساكن تنطق بصوت قصير نحو قوله تعالى ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾[١٠٦].

وإذا تلاها حرف متحرك وجب إشباع حركتها لتصل المضمومة إلى صوت الواو، فتمد بحركتين نحو قوله تعالى ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[١٠٧] فتقرأ (لهو ما في السماوات) وتصل المكسورة الى صوت الياء نحو قوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[١٠٨] فتقرأ (ومن آياتهي خلق السماوات).

وقد حدّد القراء مقدار هذا المدّ بحركتين، وعرفوه بأنه مدّ الصلة الصغرى، ومعنى الصلة الزيادة.

وإذا وقعت بعدها همزة وجب امتداد صوت الهاء أو الياء الى مقدار أربع حركات، فالمضمومة نحو قوله تعالى ﴿ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[١٠٩] وتقرأ (وأمرهو إلى الله)، والمكسورة نحو قوله ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[١١٠] وتقرأ (ومن آياتهي أن خلقكم...) وعرفه القراء بأنه المد الجائز المنفصل، وحددوا مقدار مدّه بأربع حركات.

وتحديد هذه الأصوات بالمشافهة والدربة المستمرة فهي من الظواهر اللغوية التي لا حرف لها يدل عليها سواء كانت بصوتها القصير أو المد الطويل. وقد رسم القراء في المصحف رموزاً صغيرة لتقريب الدلالة على صوتها.

وقد تجري على لسان الشاعر على غير ما ذكرنا من هذه الضوابط كقوله[١١١]:

وأشرب الماء ما بي نحوهُ عطش

إلا لأن عيونهْ سيل واديها

قد خرج عن الضوابط المعروفة لضمير المفرد فمط حركة الضمير في قوله (نحوه) لتصل إلى واو فقال: (نحوهو). وأما في قوله (عيونه) فأجراها في الوصل ساكنة الهاء، وقد حدد هاتين اللهجتين في قول الشاعر ضرورة الالتزام بالتفعيلات المحددة لوزن البيت، ولو قرئ بحسب حروفه المرسومة لما كشف عن لهجة قائله، وبهاتين اللهجتين قرئت آيات من الكتاب العزيز كقوله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾[١١٢] فقرئ (خذوهو، فغلوهو، صلوهو، فاسلكوهو) بمط حركة الهاء[١١٣] وكقوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾[١١٤]. فقرئت (عصاهو)[١١٥] بمط الضمة. وقد قرئ بسكون الهاء في قوله

تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾[١١٦]. وهي في لهجة أزد السراة، فهم يلتزمون بتسكين الهاء مطلقاً ، في الوصل وفي درج الكلام.

الوقف بالتشديد:

وهذا مظهر آخر من مظاهر الوقف يدل على تمكن اللسان في إظهار الحرف، وله صوت خاص به، ومن ذلك ما أنشده أبو زيد[١١٧]:

ضخم نجاري طيب عنصري

أراد (عنصري) فشدد الراء لنية الوقف ثم أطلق ياء الإضافة من بعد، ومثله قول الآخر:

يا ليتها قد خرجت من فمه

بتشديد الميم ، كأنه نوى الوقف على الميم فثقلها ،على حد قوله في الوقف (هذا خالد) بتشديد الدال. وقد تكون اللفظة بين الوقف والوصل، واستشهد ابن جني لهذه الظاهرة ببيت الكتاب قوله[١١٨]:

له زجل كأنه صوت حادٍ

إذا طلب الوسيقة أو زميرُ

فقوله (كأنه) -بحذف الواو وتبقية الضمة- ليس على حد الوصل ولا على حد الوقف، أما الوقف فيقتضي السكون فيقول (كأنه)، وأما الوصل فيقتضي المطل وتمكين الواو ليقول: (كأنهو) فقوله (كأنهُ) بالضمة في منزلة بين الوصل والوقف وإن كان الوقف لانقطاع نفس فالأصل مراعاة السكون على الحرف الأخير وعلى صورته المرسومة له.

ظاهرة الرَّوْم:

الرَّوم - بفتح الراء- معناه الطلب، وهذه إحدى ظواهر الوقف، فيشير بشفتيه للحركة من غير تصويت فكأنه يطلب الحركة على آخر الكلمة لبعض الدواعي اللفظية أو المعنوية نحو قوله تعالى ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾[١١٩] فيضم الشفتين بعد الوقف على الراء، (فالغرور) هو الشيطان، وهو الفاعل للفعل (يغرنكم) وهو مرفوع بضمة ظاهرة على آخره فعند الوقف عليه بالسكون قد يقع اللبس بأنه نعت لما قبله بعد أن فصل بينه وبين فعله فيقتضي المقام إبعاد اللبس للحفاظ على المعنى فيجب ضم الشفتين من غير صوت ، فهي ظاهرة لا يراها إلا البصير!

ومثله الوقف على اللام في نحو (هذا العمل) فإذا سكت وجد في فيه طلباً للضمة وكأنه وقف من غير تمكن وهو يريد مثلاً أن يقول (هذا العمل مما لا يرضاه الله) لذلك يضم شفتيه ليبين أن اللسان مستمر بالنطق فيتحاشى عن السكون الخالص إلى صورة الحركة.

ومن أصوات الوقف أن يقع حرف مد قبل الأخير نحو ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ﴾[١٢٠] ففي الوقف على الهمزة يجتمع ساكنان وللتخلص منه إما أن يمد الألف، ويسميه القراء (المد المتصل)، أو يروم الضمة على الهمزة من غير مد؛ إذ لا يجتمع المد والروم في وقت واحد.

والوقف منه ما هو متمكن أو غير متمكن ولكليهما صوت لا يجري على وتيرة واحدة فالوقف في المتمكن على نحو (قد رحل الناس) بالسكون المحض أمر جليّ.

أما الوقف للاستراحة مع نية التواصل فهو وقف غير متمكن وكأن المتكلم يريد حض المخاطب قبل أن يكمل كلامه فيقول (قد رحل الناس) بإشمام

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

السين ضمة خفيفة لا يكاد يسمع لها صوت، وبعد السكت يقول (وأنت مقيم)، وعلى ظاهرة الروم هذه تحمل القوافي المطلقة في نحو قول امرئ القيس[١٢١]:

أغـــركِ مـنـي أن حـبـكِ قـاتـلـي

وأنـكِ مـهـمـا تـأمـري الـقـلـب يـفـعـلِ

بكسر اللام وكأنه يريد أن يقول: يفعل الذي تطلبينه، وقول النابغة[١٢٢]:

أزف الـتـرحـلُ غـيـرَ أن ركـابـنـا

لـمـا تَـــزُلْ بـرحـالـنـا وكَـــأَنْ قَـدِ

وكأنه يريد أن يقول (وكأنها قد زالت برحالنا)، وهو من باب التذكر بالشيء فيجري بصوت يشعر السامع أن المتكلم مستمر في كلامه، ولابن جني تعليل لهذه الظاهرة قال: (وإنما مطلت) ومدت هذه الأحرف في الوقف لما يشعر بالتذكر ومواصلة الكلام فلو وقف عليها غير منقولة ولا ممكنة المدة لما وجد دليل عند السامع على ما في نفس المتكلم من إتمام الكلام، وقال: (لما وقفت ومطلت الحرف علم بذلك السامع أنك متطاول إلى كلام تال للأول ومتعلق به) [١٢٣] وهذا أشبه بالفرق بين صوت المخبر في نحو: (أنا فعلت هذا)، وصوت المستنكر: (أنا فعلت هذا ؟).

ظاهرة الإشمام:

تضاربت أقوال علماء اللغة في تحديد مصطلح الروم ومصطلح الإشمام، ووقع الكثير منهم في اللبس بينهما، والكوفيون يسمون الإشمام روماً، والروم إشماماً[١٢٤].

ومنهم من عرفهما بعبارات غامضة، أو يمثل للإشمام ويصفه بصفات الروم، والعجب أن يقع هذا الاضطراب في تعريف ظاهرتين معلومتين هما من ظواهر اللغة الظاهرة ومن مصطلحات القراء المتداولة على ألسنتهم قديماً، واتباعا لمنهج من انجلى له أمرهما نحددهما بأن الروم من مظاهر الوقف، والإشمام في حشو الكلمة.

ويتحدد صوت الحرف بحسب ما يعتوره من السكون والحركات وحروف المد، والحركات في الظاهر ثلاث هي الضمة والفتحة والكسرة ولكن من دقائق النظر بالنطق نجد أن هناك حركات أخرى خفية، فبين كل حركتين حركة[١٢٥].

والحركة هي الوسط بين السكون وحرف المد، والسكون هو أخف من المد ، لذلك يشمون الحركة بالسكون طلباً للخفة، وما هو بالسكون المحض، وإنما هو بشم الحرف بحركة مختلسة مختفاة لا يعتد بها حتى إنها لا تكسر وزناً ، ويسمعها القريب دون البعيد، وهذه الظاهرة الصوتية جلية ظاهرة في لسان العامة[١٢٦].

وقد يلحق الحرف حرف مماثل له عند إشمامه بالسكون فيقع الإدغام بينهما إدغاماً خفيفاً كاجتماع الراءين في نحو قوله تعالى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾[١٢٧] فعند إشمام الراء الأولى يؤتى بضمة مختلسة مختفاة ولا يجوز التسكين المحض لئلا يجتمع ساكنان، فالهاء قبل الراء ساكنة فيقرأ (شهر رمضان) [١٢٨] وقال الصفاقسي[١٢٩] (إن هذا إدغام محض) ، وقد جادل عن رأيه فقال: (فلنصدع بالحق ونترك التطويل بجلب الأقاويل فنقول الذي قرئ به هو الإدغام المحض وهو الحق الذي لا مرية فيه).

ومن أمثلة الإشمام في اجتماع الحرفين المتماثلين كاجتماع النونين في قوله تعالى ﴿ مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا

عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾[١٣٠] فأصلها (تأمننا)[١٣١] أو بالإدغام مع إخفاء الحركة[١٣٢] أو بالإدغام مع الإشمام بالضم[١٣٣]، وقرئ (تئمنا) بكسر حرف المضارعة على لغة قيس[١٣٤] وقرئ (تيمنا) بقلب الهمزة ياء بمجانسة الكسرة قبلها[١٣٥]، وقرئ (تأمنا) بنقل حركة النون إلى الميم[١٣٦]. ونحو ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾[١٣٧] وأصله (مكنني) فأسكن النون ثم أدغمها مع النون بعدها. ونحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[١٣٨] وأصله (تأمرونني) فحذف الفتحة وأسكن النون وأدغمها بالنون بعدها. وقد جاز اجتماع الساكنين ههنا؛ إذ الواو قبلها ساكنة وهي حرف مد فهي كالألف في قوله تعالى: ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾[١٣٩].

ومن الآيات التي قرئت بالإشمام قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحُ ﴾[١٤٠] قرئ الواو في (يعفو) بإشمام الفتحة سكوناً خفياً[١٤١] وتراءى لهم أنه سكون محض فعللوه، قال ابن جني (وسكون الواو من المضارع في موضع النصب قليل)[١٤٢] وقد قرروا أن الإشمام لا يكسر وزناً، كالإشمام في (يؤرقني) في قول الشاعر:

متى أنام لا يؤرقني الكري

ليلاً ولا أسمع أجراس المطي

فأشموا القاف المضمومة باختلاس حركتهما لتقرب من السكون، قال سيبويه: وسمعت بعض العرب يشمها الضمة. ونحو قول امرئ القيس[١٤٣]:

فاليوم أشرب غير مستحقب

[١٤٤] **إثماً من الله ولا واغلِ**

فقوله (أشرب) بإشمام الباء بحركة مختلسة مختفاة فلا تؤثر على الوزن لأنها إلى الحركة أقرب من السكون، والذين لم يلحظوا هذا الإشمام في الحرف حكموا بأنه ساكن وأنه خارج عن القواعد للضرورة الشعرية، ولو حكمنا عليه بالحركة لاختل الوزن ولخرج إلى بحر آخر، ولحكموا على امرئ القيس الشاعر الجاهلي بالجهل بالأوزان.

ومن الإشمام في قول أبي دواد[١٤٥]:

فأبلوني بليتكم لعلي

أصالحكم وأستدرج نويا

فأشم الحاء في قوله (أصالحكم) بين الضمة والسكون.

وقد كثرت آراء النحاة في تعليل كثير مما ورد بالإشمام ولا سيما في ظاهرة تسكين الياء في الاسم المنقوص كقول الشاعر[١٤٦]:

كأن أيديهن بالقاع القرقْ

أيدي جوار يتعاطين الورقْ

بإشمام حركة الياء في (أيديهن) بين الفتحة والسكون، واستشهد سيبويه على مثله بقول الشاعر[١٤٧]:

سوى مساحيهن تقطيط الحقق

تقليل ما قارعن من سمر الطرق

فقوله (مساحيهن) مفعول به وقد أشم حركة الياء بين الفتحة والسكون، وما هو بالسكون المحض.

قال ابن جني (وهذا كثير جداً في كلام العرب)، ومن لم يدركوا هذا الإشمام ظنوا أن الياء ساكنة فاحتالوا على تعليله وقالوا هذا من تسكين المنقوص في حالة النصب للضرورة[١٤٨].

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

وكذلك قال البغدادي: (إن تسكين الياء في (أيديهن) ضرورة والقياس فتحها، وقال ابن جني: (شبهت الياء بالألف لقربها منها، فجاء عنهم مجيئاً كالمستمر)[١٤٩].

وفي قوله تعالى ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ ﴾[١٥٠] وجوه كثيرة من الإشمام: فقرئ باختلاس الكسرة من الهمزة[١٥١] وقرئ قريباً من السكون وما هو بالسكون المحض[١٥٢] وقرئ (باريكم) بقلب الهمزة ياء ساكنة[١٥٣] وقرئ (باريكم) بالإشباع وهو بصوت أخف من الياء الساكنة[١٥٤] وكل هذه القراءات تتلقى مشافهة فالإشمام فيها بأصوات غير ذات حروف مرسومة تدل عليها.

وقد بذل القراء جهدهم في تحديد الصوت في الإشمام فوصفوه بالتوسط مثلاً أو بالطول أو فويق التوسط ، كما وصفوا الظواهر الصوتية الأخرى كالروم والتسهيل وهمزة بين بين، ولكن ذلك الوصف قاصر عن أدائه نطقاً بحسب حروف الكلمة. حيث يقتضي لكل ظاهرة من هذه الظواهر حرفاً له صورته الدالة عليه.

الاختلاف في التعليل:

ولخفاء الصوت كانوا يختلفون في حكمهم على قراءة الكلمة حتى قالوا: إن أبا عمرو كان يحذف الحركة ويسكن الهمزة في نحو (بارئكم). وقال سيبويه: إنه كان يختلس الحركة فلا يحذفها البتة. وبعضهم ذكر أنه كان يشم الهاء المكسورة بشيء من الفتح في دال ﴿ يَهۡدِيٓ ﴾[١٥٥] والخاء من ﴿ يَخِصِّمُونَ ﴾[١٥٦] بفتح مكتسب من فتحة الياء قبلها ، وكل هذا من الخفاء الدقيق بصوت الحرف[١٥٧] .

حركة حرف المضارعة:

ومما يحمل على ظاهرة الإشمام كسر حرف المضارعة ما عدا الياء ، فيقولون (تعلم) وما هي بكسرة محضة وإنما هي حركة مختلسة إلى كسرة غير مشبعة فهي قريبة من السكون، وهي ظاهرة في لسان قبيلة بهراء وربيعة وبني أسد وتسمى (التلتلة)[١٥٨]. وقد وردت آيات كثيرة قرئت أفعالها بكسر حرف المضارعة، فقرئ ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾[١٥٩]. بكسر التاء ويدل على أن التاء ههنا بكسرة مختلسة أنها لو كانت بكسرة محضة للزم ترقيق الراء بعدها[١٦٠]. وقرئ قوله تعالى ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ ﴾[١٦١] بالتاء المكسورة.

وقرئ ﴿ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[١٦٢] بكسر النون[١٦٣] قال ابن هشام: وسمعت بدويا يقول في المسعى (اللهم إنك تعلم ما لا نعلم) بكسر حرف المضارعة التاء والنون[١٦٤].

وقد التزم أهل الحجاز بكسر همزة الفعل (إخال) وورد في الحديث (ما إخالك سرقت) أي ما أظنك بكسر الهمزة[١٦٥].

وأما الياء فلا تكسر، قال ابن هشام: ولم يجيزوا كسر الياء لثقل الكسرة عليها[١٦٦].

وفي كسر حرف المضارعة ضوابط وضعها علماء اللغة بحسب استقرائهم للأفعال التي وردت على لسان العرب، ويكاد يخفى صوت الحرف المكسور بخفائه خلسة فهو بصوت مختلس بين كسرة وسكون، ولا صورة له في الرسم، وكم في اللهجات العامية من ظواهر يدق على السمع تحقيقها!

ومن ظاهرة الإشمام الميل في نحو (السلام عليكم) يميلون بضمة كاف الخطاب الى كسرة مختفاة وهي ظاهرة في لهجة ربيعة وتسمى (لهجة الوشم) نسبة إلى بلدهم القاطنين فيه[١٦٧].

ولو قارنا بين لهجة قريش واللهجات العربية الأخرى لوجدنا أن منشأ تلك اللهجات هو إخفاء الصوت بالحرف ليظهر بصوت حرف آخر قريب منه أو لا يكاد يظهر له صوت، ولذلك أطلقوا على لهجة قضاعة (الغمغمة) من الغمة والخفاء[١٦٨].

الإشمام لمجاورة حرف اللين:

وإذا وقع بعد الحرف حرف لين جنح اللسان إلى إشمامه ففي نحو (الصيف) تشم الصاد بكسرة لمجاورتها لحرف (الياء) بعدها وفي نحو (الصوم) تشم الصاد بضمة لمجاورتها لحرف (الواو) بعدها. وفي هذا الإشمام يظهر بجلاء سهولة النطق بالكلمة ولذلك يكثر على لسان العامة.

الإشمام بالحرف:

وهذا نوع آخر من الأصوات يندرج في ظاهرة الإشمام ويجري على الحرف الذي له قرب مع غيره من الحروف، فالصاد قريبة من الزاي في بعض الصفات فتشتركان في الصفير وفي الجهر ففي قوله تعالى ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[١٦٩] أشربوا الصاد زاياً إما بصوت صريح أو بصوت خفي. وللصاد تقارب مع السين أيضاً، فكلتاهما مخرجهما من طرف اللسان ومن بين الثنايا العليا والسفلى وكلتاهما تتصفان بالهمس والرخاوة وهما من حروف الإصمات فلهذا التقارب بينهما أشربت الصاد سيناً فقرئ: (السراط المستقيم)[١٧٠]. وأشكال هذه الظاهرة مبنية على أصوات قد تعارف عليها القراء فهي تتلقى من أفواههم وليس لها حروف تدل عليها.

وكما بدت ظاهرة الإشمام في إخفاء الحركة وكأنها فيه محذوفة بدت ظاهرة مطها وإطالتها في الكلام وكأنها حرف مد زائد، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر وقد مط ضمة الراء في (أنظر) بإشباعها لتصل إلى ما يقرب من صوت (الواو) في قوله[١٧١]:

وإنني حوثما يثني الهوى بصري

من حوثما سلكوا أثني فأنظورُ

ومهما قيل في روايات البيت، فإنه يدل على أن الشاعر بلغته هذه يميل إلى الضم، يدل على ذلك قوله (حوثما) في الشطرين بدل (حيثما) وقال (فأنظور) حيث أشبع الضمة فنشأت قريباً من (الواو) وما هي بالواو الخالصة، فإذا أنشد البيت لا يكاد ينكرها السمع لأنها مخفية الصوت، ولمثل هذه الظاهرة شواهد كثيرة وكانت سبباً من أسباب اختلاف تعليلات أهل اللغة فيما ورد عن لسان العرب، وبالوقوف على هذه الظواهر تتضح لغاتهم، فاللغة مبنية على أصوات في كثير منها قصرت عن تصويرها الحروف الهجائية المحدودة.

التفخيم والترقيق:

الأصل في الحرف أن ينطق بصوته ومن مخرجه المحدد له، ويتحدد صوت الحرف بإتيانه ساكناً وقبله همزة مثل: أب. أخ وبذلك يدرك صوته الطبيعي، وقد يعتريه الترقيق فيسفل، أو التفخيم فيعلو، ويراد بالتفخيم ربو الحرف وتسمينه ، ومن الأحرف ما يكون مفخماً دائماً كأحرف الاستعلاء السبعة المجموعة في قولهم (خص ضغط قظ) وقد رسموا لتفخيمها درجات: فأقواها إذا كان الحرف بعد ألف مثل (ضارب) ثم الأدنى إذا كان الحرف مفتوحاً مثل (ضرب)، ويليه ضعفاً إذا كان مضموماً مثل (ضُرب) ويليه في الضعف إذا كان مكسوراً مثل (ضِفة).

وأما إذا كان حرف الاستعلاء ساكناً فمرتبة

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

تفخيمه بحسب حركة الحرف الذي يسبقه فأقواها إذا كان بعد فتح مثل ﴿ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[١٧٢]، ثم إذا كان بعد ضم مثل ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾[١٧٣]، وأدناها إذا كان بعد كسر مثل ﴿ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾[١٧٤].

وكحرف الراء، فمخرجه من غار الحنك الأعلى، وما كان مخرجه من الغار يغلب عليه التفخيم ولكنه قد يكتنفه ما يدعو إلى ترقيقه كالكسرة سواء كانت الراء مكسورة مثل ﴿ مَّرِيجٍ ﴾[١٧٥] أو كان قبلها كسرة مثل ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾[١٧٦] وللأئمة من القراء تفصيل في درجات تفخيمها وترقيقها. وليس لهذه الظاهرة حروف تدل عليها.

وكذلك اللام فالأصل فيها أن تفخم بتصعيدها إلى الحنك الأعلى، وأشد حالات تفخيمها في لفظ الجلالة (الله) إذا لم يسبقها كسر مثل ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[١٧٧] ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ ﴾[١٧٨] -بضم الهاء من (عليهُ)-. فإن سبقها كسر اعتراها الترقيق مثل: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾[١٧٩].

ومن ظاهرة التفخيم أصوات حروف الاستعلاء (ص ض ط ظ ق) عند خفاء صوت النون قبلها مثل (ينصرون، منضود، ينطقون، ينظرون، ينقلبون).

وإخفاء صوت النون بغنّة عند مجاورة أحرف الاستعلاء يتلقاه المتعلم بمشقة من فم المعلم، وأشق منه ترقيق الغنّة فيما سوى ذلك من الحروف، نحو (كنتم، وأنفقتم) وللأئمة القراء تمكن في أداء هذه الأصوات بحسب التلقي والدربة المتواصلة.

النبرات واختلاف الأصوات:

لعل هذه المسألة هي من دقائق بلاغة المتكلم؛ لأنها مبنية على مراعاة المعنى في نفسه، فهو يؤديه بصوت محدد وبنبرة خاصة تكشف عن المعنى المقصود في نفسه، فالأصوات تختلف تبعاً للنبرات المختلفة، والنبرة تختلف تبعاً للمعنى الذي يقصده المتكلم، وأمثلة هذا الباب للاستدلال عليه لا تحصر فلام التوكيد نبرتها خفيفة، واللام الجارة نبرتها شديدة.

وإنما خفت نبرة لام التوكيد؛ لأنها زائدة في الكلام ويمكن الاستغناء عنها، فاللام في (لهم) هي للتوكيد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[١٨٠]، فالنبرة تقع على قوله: (هم المنصورون) لتبين أنها جملة من مبتدأ وخبر، ومثلها قوله: (لهم الغالبون) ولو نطق باللام بنبرة قوية وبصوت حرف الجر لفسد نظم الكلام.

وأما اللام الجارة فتقع عليها نبرة شديدة؛ إذ هي أصل في الجملة نحو قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾[١٨١] وليس لهاتين النبرتين صورة إلا بالتلقي مشافهة.

ومما يلتبس في أفواه كثير من الناطقين صوت (ما)، فنبرة الصوت على (ما) النافية هي غير النبرة عليها في حالة الاستفهام، وهي غير نبرتها في التعجب في نحو ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾[١٨٢] حيث يمتد الصوت بها مرتفعاً بنبرته.

ونبرة (ما) الموصولة هي غير نبرة (ما) الحرفية واقرأ إن شئت قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾[١٨٣] فـ(ما) نافية، ونبرة الصوت بها تقع على الميم، أما من ظنها اسماً موصولاً فيقرؤها بصوت سهل لا نبرة فيها وكأنه يقرأ (والذي أنزل) فيفسد المعنى ويبتعد عما تدل عليه الآية. فالقارئ يلزمه أن يدرك المعنى

ليؤدي الحرف بنبرة تناسبه كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾[184] فنبرة (ما الشرطية) ههنا واطئة مخفية، وهي تختلف عن نبرة (ما) النافية بعدها في قوله ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾[185] فهي بنبرة شديدة وعالية، وبعدهما تأتي (ما) الشرطية ثانية في قوله ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾[186] وباختلاف النبرات التي يقتضيها المعنى تختلف الأصوات!

ومما يقتضيه المقام وجوب إدراك النبرات الفارقة بين الكلمات المتجانسة كقول الحريري في مقامة الواعظ عمن مات (ويخلى بين ودوده ودوده)[187] فالأولى (ودوده) حبيبه، والثانية (ودوده) الواو فيها عاطفة، ولو قال امرؤ لأخيه وهو ينكر عليه أمره: (ما لك قد ضيعت مالك!) لاقتضاه أن يجعل من نبرات صوته ما يتفق مع مقصده في الكلام فـ (ما) الأولى استفهامية و(ما) الثانية هي من بنية الكلمة (مال) مضافة إلى كاف الخطاب، وبين نبرة صوتيهما بون يدركه السامع ويلتزم به المتكلم.

وهناك أمثلة كثيرة من النبرات المختلفات، فإن النبرة على الجار والمجرور تحدد ما يتعلق به، فقوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾[188] فـ (عنها) متعلق بالفعل (يسألونك) والتقدير: (يسألونك عنها كأنك حفي) ، والحفي هو العالم، وقد جاءت الآية توكيداً لما قبلها في قوله (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) ولا يصح تعلقه بـ (حفي) فلا يقال أنت حفي عنها، وإنما يقال أنت حفي بها[189].

فتقرأ بنبرة عالية في قوله (يسألونك) وبالنبرة نفسها في قوله (عنها): وأما قوله (كأنك حفي) فنبرتها أقل وأضعف ليتضح بالصوت تعلق (عنها) بقوله (يسألونك). ولا يخفى ذلك على من يحاول قراءتها حسب هذا المعنى. ومثل آخر قوله تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ﴾[190] فقوله (في الكلالة) متعلق بقوله (يستفتونك) والأصل في نظم الكلام (يستفتونك في الكلالة قل الله يفتيكم) فنبرة الجملة (قل الله يفتيكم) تكون على غير نبرة الجملة المفصولة وهي (يستفتونك) (في الكلالة)، وفي تقديم (قل الله يفتيكم) وفصلها للجملة التي اكتنفتها للاهتمام بها ليقرر أن الله تعالى قد تكفل بالفتيا في مطلق أموركم. ورسم الكلمة حسب قواعد الإملاء له وجه في تحديد القراءة ومعناها، فإذا كانت (ما) كافة اتصلت بالكتابة في نحو ﴿ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ﴾[191] فكيد منصوب وهو مفعول به، وأما إن كانت اسماً فتستقل بالكتابة وتنفصل نحو (إن ما صنعوا كيد ساحر) فهي اسم (إن) وخبرها (كيد ساحر).

ولكلتا القراءتين نبرة خاصة ففي (إنما صنعوا كيد ساحر) تكون الشدة ووطء اللسان على نهاية الكلمة (ما). وفي (إن ما صنعوا كيد ساحر) تكون النبرة شديدة على (إن) ويأتي صوت (ما) بعدها واطئاً ليناً سهلاً وهي بمعنى (الذي)، وهي قريبة من صوت (ما) الشرطية في نحو ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾[192]، وبتباين النبرات على (ما) يتحدد المعنى.

ونحو قوله تعالى ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ ﴾[193] واقرأ قول الشاعر[194]:

واصل خليلك ما التواصل ممكن

فلأنت أو هو عن قريب راحلُ

فلو قرأت (ما) بنبرة النافية لفسد المعنى في

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

دلالة الكلام.

وقوله تعالى ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾[١٩٥] فتقرأ (ما) بنبرة تدل على الاستفهام المشعر بالتعجب ، أي: فأي شيء ينسبك إلى الكذب وإنكار الجزاء يوم القيامة بعد هذا البيان القاطع والبرهان الساطع، وهي غير نبرة (ما) النافية ويحدد ذلك المعنى في نفس القارئ، وسبيل كل هذا هو التدبر في الآيات الكريمة ومقاصدها.

وتدبر قوله تعالى ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[١٩٦] فـ(ما يعبدون) عطف على الضمير المنصوب في (اعتزلتموهم) فتقدر (ما) مصدرية أو موصولة أي: وإذ اعتزلتموهم وعبادتهم أو معبوداتهم إلا الله، وعلى كلا التقديرين فإن (ما) ليست بنافية، لذلك تقرأ بنبرة خفيفة وواطئة.

ومن ظنها نافية لوجود أداة الاستثناء بعدها فقرأها بنبرة شديدة أفسد دلالة الكلام، وفات المقصود من معنى الآية. إن أداء النص بصوت حسب النبرة الدالة على المعنى المقترن بالتدبر هو الترتيل الواجب.

ومن أمثلة (ما) التي يجب تحديد نبرتها تجنباً من فساد المعنى قول الشاعر[١٩٧]:

رب ما تكره النفوس من الأمـ

ـر له فرجة كحل العقالِ

فـ(ما) اسم موصول مبتدأ وخبره (له فرجة كحل العقال) فتكتب منفصلة، ولو كتبت متصلة على صورة (ربما) وقرئت بنبرة على أنها كافة لـ (رب) لفسد المعنى واضطرب نظم الكلام. وتقول (إن ما أنشدته فصيح، وإن ما قلته مليح) فـ (ما) اسم موصول مبتدأ وخبره فصيح فلو كتبت (إنما) وبنبرة على أنها حرف لفسد المعنى واضطرب نظم الجملة.

ومن أمثلة (ما) النافية وضرورة فصلها في الكتابة قول المادح[١٩٨]:

جيم جميع الخلق تشهد أن ما

عم الورى إلا نوال محمدِ

فتقرأ بنبرة (ما) النافية لوقوع أداة الحصر بعدها، وفي قول الأفوه الأودي[١٩٩]:

فوالله ما فارقتكم قالياً لكم

ولكن ما يقضى فسوف يكونُ

فـ (ما فارقتكم) نافية، وقوله (ولكن ما يقضى) (ما) ههنا اسم موصول، ولكل منهما نبرتها الخاصة.

ومن أدق النبرات التي يجب مراعاتها في (ما) إذا كانت زائدة حيث يكاد يخفى بها الصوت كما في قوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾[٢٠٠].

وكقول ابن قتادة[٢٠١] لما سأله عمر بن عبد العزيز عن نسبه فقال:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه

فردَّتْ بكفٍّ المصطفى أَيَّما رَدِّ

وعادت كما كانت لأول أمرها

فيا حُسْنَما عينٍ، ويا حُسْنَما خَدِّ

فـ(ما) زائدة في (أيما) و(حسنما) ولها نبرة يكاد الصوت معها يخفى ولا يظهر.

وكل هذه النبرات تؤدى بأصوات متفاوتة بحسب

المعاني التي يتضمنها الكلام وبحسب إدراك المتكلم لها، ومن هنا كان التفاوت لدى القارئين والخطباء والمنشدين وتقدير السامعين لهم. وعليها بني الأداء في ترتيل آيات الكتاب العزيز.

نتيجة البحث:

يحق للناظر في هذا البحث أن يحكم بأنه قد تضمن نتائج كثيرة تدل عليها الأمثلة التي عرضناها بإيجاز لنبرهن بها على أن اللغة العربية مبنية معانيها على حركاتها وأصواتها ونبرات حروفها يؤديها المتكلم لتحقيق المعاني التي يقصدها.

وتلك الأصوات غير محصورة وغير مرسومة، وقد فصلنا القول أن بين كل حركتين من الحركات الثلاث حركة أخرى خفية، ولحروف المد الثلاثة درجات في أصواتها، وبعض الحروف تفخم وبعضها يميل به اللسان، وأخرى تشم وغيرها يقع (بين بين) وقد وصف علماء اللغة والأئمة من القراء هذه الظواهر اللغوية وحددوا لها أصواتها من غير حروف مرسومة لها، ولا غرابة في كل ذلك وليس هذا من خلل أو نقص في اللغة العربية فإن من يتتبع اللغات يقف على كثير من هذه الظواهر وكلها تخضع لناموس واحد هو أن المشاعر والعواطف والمعاني والغايات لدى الإنسان في كلامه لا تكاد تحصرها الحروف المحدودة المعدودة.

ومع كل هذا الذي قدمناه فإنه مما لا شك فيه أن العربية بظواهرها اللغوية قد فسرها علماء اللغة وبنوها على أشبه ما يكون بالقواعد، فإن لم يكن لها قواعد فقد حدد العلماء لها ضوابط عامة كالتي وقفنا عليها من ظاهرة الإمالة وظاهرة قلب الحرف أو إخفائه أو إدغامه، وظاهرة التسهيل والإشمام والروم وظاهرة التفخيم والترقيق وكلها ترجع إلى ما يحس به المتكلم من المعاني في نفسه، وبتفسيرها تتكشف لنا بوضوح العلاقة بين اللهجات العربية وندرك المراحل التي ابتعدت بها الألفاظ في اللهجة الفرعية تدريجياً عن اللغة الأم. وهناك ظواهر أخرى كثيرة لهذه اللغة العربية السامية التي اختارها الله لكتابه العزيز يطول الكلام في الحديث عنها كما قدمنا ذلك في المقدمة.

وما قدمناه إنما هو لإثارة المحاورة وعسى أن يكون منطلقاً للباحثين في مثله لتكمل جوانبه. ففي العربية من الظواهر ما يمتع النظر، ويبهج النفس ويشرح الصدر افتخاراً بهذه اللغة التي أعزها الله تعالى بكتابه العزيز، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

الهوامش :

١. سورة الحجرات، الآية ٢.
٢. سورة الحجرات، الآية ٣.
٣. سورة لقمان، الآية ١٩.
٤. سورة الكهف، الآية ٩٣.
٥. ينظر: مولد اللغة الصفحة: ١٧.
٦. نظام العالم والأمم: ١٣١/٢.
٧. سورة هود، الآية ٤١.
٨. وبها قرأ حفص وحمزة والكسائي، معجم القراءات: ١١١/٣.
٩. سورة الفاتحة، الآية ٤.
١٠. وبها قرأ الكسائي، معجم القراءات: ٩/١.
١١. وبها قرأ يحيى بن يعمر، معجم القراءات: ٩/١.
١٢. وبها قرأ أبو هريرة وأبيّ، معجم القراءات: ٩/١.
١٣. سورة هود، الآية ٤١.
١٤. سورة الممتحنة، الآية ١.
١٥. سورة النور، الآية ٣٣.
١٦. مذكرة في التجويد: ٢١.

١٧. سورة الفاتحة، الآية ٧.

١٨. سورة النساء، الآية ٥.

١٩. سورة النساء ، الآية ١٢٣.

٢٠. سورة البقرة، الآية ٩١.

٢١. المقتضب: ١٥٥/١.

٢٢. سورة البقرة، الآية ٢٦٩.

٢٣. سورة الفتح ، الآية ٤.

٢٤. سورة طه ، الآية ٧١.

٢٥. ينظر: لسان العرب مادة (أزر): ٤/ ١٦.

٢٦. النهاية: ٤٤/١، لسان العرب مادة (أثر): ١٧/٤.

٢٧. كتاب سيبويه: ١٦٤/٢، المقتضب: ١٥٧/١.

٢٨. سورة البقرة، الآية ٧١.

٢٩. وبها قرأ السوسي، معجم القراءات: ٧٢/١.

٣٠. سورة البقرة، الآية ٣.

٣١. وبها قرأ نافع وأبو عمرو وعاصم وغيرهم، معجم القراءات: ١٨/١.

٣٢. سورة الأعراف، الآية ١٥٠.

٣٣. وبها قرأ السوسي، معجم القراءات: ٤٠٥/٢.

٣٤. سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

٣٥. معجم القراءات: ٢٢٨/١.

٣٦. سورة الأنعام، الآية ٧١.

٣٧. سورة الناس، الآية ١.

٣٨. وبها قرأ ورش، ينظر تفسير الرازي: ١٩٨/٣٢، معجم القراءات: ٢٨١/٨.

٣٩. سورة البقرة، الآية ٧١.

٤٠. وبها قرأ نافع، ينظر معجم القراءات: ٧٢/١.

٤١. الخصائص ٩٠/٣.

٤٢. سورة البقرة، الآية ٢١١.

٤٣. سورة القلم، الآية ٤٠.

٤٤. سورة الإسراء، الآية ١٠١.

٤٥. سورة يونس، الآية ٩٤.

٤٦. سورة الأحزاب، الآية ٥٣.

٤٧. سورة قريش، الآية ١.

٤٨. وبها قرأ عكرمة، معجم القراءات: ٢٣٩/٨.

٤٩. سورة الماعون، الآية ١.

٥٠. وبها قرأ الكسائي، معجم القراءات: ٢٤٩/٨، وينظر: تفسير الرازي: ٣٢ /١١٣.

٥١. تفسير الرازي: ١١٣/٣٢، لسان العرب مادة (رأى): ١٤/ ٣٩٣.

٥٢. لسان العرب مادة (رأى): ٣٩٢/١٤.

٥٣. تفسير الرازي: ١١٣/٢٣، لسان العرب مادة (رأى): ٢٩٣/١٤.

٥٤. سورة البقرة، الآية ١٤.

٥٥. ينظر: لسان العرب مادة (هزأ): ١٨٣/١، معجم القراءات: ٢٨/١.

٥٦. الخصائص: ١٥٠/٣، لسان العرب مادة (ويل): ٧٤٠/١١.

٥٧. سورة الإخلاص، الآية ٤.

٥٨. سورة البقرة، الآية ٢٤٧.

٥٩. وبها قرأ نافع، معجم القراءات: ١٩٠/١.

٦٠. سورة النساء، الآية ١١٢.

٦١. معجم القراءات: ٢/ ١٠٠.

٦٢. سورة البقرة، الآية ٦.

٦٣. معجم القراءات: ٢١/١.

٦٤. سورة يوسف، الآية ٩٠.

٦٥. معجم القراءات: ١٩٠/٣.

٦٦. كتاب سيبويه: ١٩٧/٢، المقتضب: ١٥٥/١.

٦٧. الخصائص: ٢ /١٤٤.

٦٨. ينظر لسان العرب، مادة (روم): ٢٥٨/١٢.

٦٩. سورة محمد، الآية ١٨.

٧٠. سورة الأعراف، الآية ٤٧.

٧١. معجم القراءات: ١٩٠/٦ .

٧٢. معجم القراءات: ٣٦٤/٢.

٧٣. لسان العرب مادة (عنن): ٢٩٥/٣.

٧٤. لسان العرب مادة (بهر): ٨٥/٤.

٧٥. لسان العرب مادة (أوس): ٢٢٤/٦.

٧٦. سورة الفاتحة، الآية ٧.

٧٧. وبها قرأ أيوب السختياني، ينظر الخصائص: ٣ /١٤٧، معجم القراءات: ١٤/١.

٧٨. سورة الرحمن، الآية ٣٩.

٧٩. وبها قرأ عمرو بن عبيد، معجم القراءات: ٥٤/٧.

٨٠. الخصائص: ٣/ ١٢٧، ١٤٨.

٨١. سورة الروم، الآية ٢٨.

٨٢. سورة النحل، الآية ٥٣.

٨٣. سورة البقرة، الآية ١٦.

٨٤. سورة النساء، الآية ٧٨.

٨٥. سورة الإسراء، الآية ٣٣.

٨٦. سورة البقرة، الآية ٦٠.

٨٧. سورة طه، الآية ١١٤.

٨٨. سورة يونس، الآية ٨٩.

٨٩. سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

٩٠. سورة الأعراف، الآية ١٧٦.

٩١. سورة النساء، الآية ٦٤.

٩٢. سورة يوسف، الآية ٨٠.

٩٣. سورة آل عمران، الآية ٧٢.

٩٤. سورة المرسلات، الآية ٢٠.

٩٥. سورة الكهف، الآية ١٩.

٩٦. ينظر: معجم القراءات: ٣/٣٥٥.

٩٧. سورة لقمان، الآية ١٩.

٩٨. سورة نوح، الآية ١٢.

٩٩. سورة القصص، الآية ٢٥ .

١٠٠. سورة الأنبياء، الآية ٤.

١٠١. سورة التوبة، الآية ٤٠.

١٠٢. سورة النمل، الآية ٢٥.

١٠٣. وبها قرأ أبي وعيسى وعكرمة، المقتضب: ١/١٦٠، معجم القراءات: ٤/٣٤٧.

١٠٤. خزانة الأدب: ٥/٢٤٢.

١٠٥. خزانة الأدب: ٥/٢٤٣.

١٠٦. سورة البلد، الآية ١٠.

١٠٧. سورة النساء، الآية ١٧١.

١٠٨. سورة الروم، الآية، ٢٢.

١٠٩. سورة البقرة، الآية، ٢٧٥.

١١٠. سورة الروم، الآية ٢٠.

١١١. الخصائص: ١/٣٧١، ٢/١٨، خزانة الأدب: ٥/٢٧٠، ٦/٤٥٠.

١١٢. سورة الحاقة، الآيات ٣١، ٣٢، ٣٣.

١١٣. الخصائص: ٢/١٨، معجم القراءات: ٨/١٠٠.

١١٤. سورة الأعراف، الآية ١٠٧.

١١٥. معجم القراءات: ٢/١٠٠.

١١٦. سورة آل عمران، الآية ٧٥، وهي قراءة أبي عمرو وهشام، معجم القراءات: ٢/١٠٠.

١١٧. خزانة الأدب: ٢/٩٢.

١١٨. الخصائص: ١/١٢٧.

١١٩. سورة لقمان، الآية ٣٣.

١٢٠. سورة النازعات، الآية ٢٧.

١٢١. خزانة الأدب: ٩/١٨.

١٢٢. خزانة الأدب: ٧/١٩٧.

١٢٣. الخصائص: ٣/١٢٨.

١٢٤. معجم القراءات: ١/١٣٢.

١٢٥. ينظر: الخصائص: ٣/١٢٠.

١٢٦. القاموس المحيط مادة (شمم): ٤/١٣٧، ولسان العرب: ١٢/٣٢٦.

١٢٧. سورة البقرة، الآية ١٨٥.

١٢٨. وبها قرأ عاصم وأبو عمرو ومجاهد، معجم القراءات: ١/١٤٣.

١٢٩. كتاب الغيث: ١٥٠.

١٣٠. سورة يوسف، الآية ١١.

١٣١. وبها قرأ طلحة والحسن، معجم القراءات: ٣/١٥٢.

١٣٢. وبها قرأ نافع وابن كثير، معجم القراءات: ٣/١٥١.

١٣٣. وبها قرأ كذلك نافع وابن كثير، معجم القراءات: ٣/١٥١.

١٣٤. وبها قرأ أبو رزين، معجم القراءات: ٣/١٥٢.

١٣٥. وبها قرأ يحيى بن وثاب والأعمش، معجم القراءات: ٣/١٥٢.

١٣٦. وبها قرأ ابن هرمز، معجم القراءات: ٣/١٥٢.

١٣٧. سورة الكهف، الآية ٩٥.

١٣٨. سورة الزمر، الآية ٦٤.

١٣٩. سورة الفاتحة، الآية ٧.

١٤٠. سورة البقرة، الآية ٢٣٧.

١٤١. وبها قرأ الحسن والشعبي معجم القراءات: ١/١٨٤.

١٤٢. خزانة الأدب: ٨/٣٤٧.

في اللغة العربية أصوات لا حروف لها

١٤٣. كتاب سيبويه: ٤٥٠/١، الخصائص: ٧٣/١، لسان العرب مادة (أرق): ٤/١٠.

١٤٤. الخصائص: ٩٦/٣.

١٤٥. الخصائص: ٣٤١/٢، ٤٢٤.

١٤٦. الخصائص: ٣٠٦/١، ٢٩١/٢، خزانة الأدب: ٣٤٧/٨.

١٤٧. كتاب سيبويه: ٥٥/٢، المقتضب: ٢٢/٤.

١٤٨. الخصائص: ٣٤١/٢.

١٤٩. خزانة الأدب: ٣٤٧/٨.

١٥٠. سورة البقرة، الآية ٥٤.

١٥١. وبها قرأ أبو عمرو، معجم القراءات: ٥٦/١.

١٥٢. وبها قرأ أبو عمرو وحمزة واليزيدي، معجم القراءات: ٥٦/١.

١٥٣. وبها قرأ نافع والزهري، معجم القراءات: ٥٧/١.

١٥٤. وبها قرأ اليزيدي، معجم القراءات: ٥٧/١.

١٥٥. سورة يونس، الآية ٣٥.

١٥٦. سورة يس، الآية ٤٩.

١٥٧. النشر في القراءات العشر: ٢١٦/٢.

١٥٨. لسان العرب مادة (تلل): ٨٠/١١.

١٥٩. سورة هود، الآية ١١٣.

١٦٠. وبها قرأ أبو عمرو وعيسى الثقفي، معجم القراءات: ١٣٨/٣.

١٦١. سورة يونس، الآية ٥٨، بالتاء المكسورة، وبها قرأ الحسن، معجم القراءات: ٨١/٣.

١٦٢. سورة الفاتحة، الآية ٥.

١٦٣. معجم القراءات: ١٠/١.

١٦٤. شرح قصيدة بانت سعاد ٤٣.

١٦٥. النهاية: ٩٣/٢.

١٦٦. شرح قصيدة بانت سعاد: ٤٣، لسان العرب مادة (وجل): ٧٢٢/١١.

١٦٧. لسان العرب مادة (وشم): ٦٣٨/١٢.

١٦٨. لسان العرب مادة (غمم): ٤٤٤/١٢.

١٦٩. سورة الفاتحة، الآية ٦.

١٧٠. معجم القراءات: ١١/١.

١٧١. خزانة الأدب: ١٢١/١.

١٧٢. سورة القدر، الآية ٥.

١٧٣. سورة النحل، الآية ١١٢.

١٧٤. سورة البلد، الآية ١٤.

١٧٥. سورة ق، الآية ٥.

١٧٦. سورة البقرة، الآية ٤٩.

١٧٧. سورة النور، الآية ٣٥.

١٧٨. سورة الفتح، الآية ١٠.

١٧٩. سورة الطلاق، الآية ٢.

١٨٠. سورة الصافات، الآية ١٧٢-١٧٣.

١٨١. سورة الأعراف، الآية ٤١.

١٨٢. سورة عبس، الآية ١٧.

١٨٣. سورة البقرة، الآية ١٠٢.

١٨٤. سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

١٨٥. سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

١٨٦. سورة البقرة، الآية ٢٧٢.

١٨٧. مقامات الحريري: ٩٩.

١٨٨. سورة الأعراف، الآية ١٨٧.

١٨٩. تفسير النسفي: ٥٩٣/١.

١٩٠. سورة النساء، الآية ١٧٦.

١٩١. سورة طه، الآية ٦٩.

١٩٢. سورة البقرة، الآية ٢٧٣.

١٩٣. سورة الزخرف، الآية ٧١.

١٩٤. حاشية الأمير على مغني اللبيب: ١٥٢/١.

١٩٥. سورة التين، الآية ٧، وينظر تفسير النسفي: ٧٠٧/٣.

١٩٦. سورة الكهف، الآية ١٦.

١٩٧. مغني اللبيب: ٣٢١/١، خزانة الأدب: ١٠٨/٦.

١٩٨. قواعد الإملاء: ٦٦.

١٩٩. قواعد الإملاء: ٦٦.

٢٠٠. سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

٢٠١. قواعد الإملاء: ٦٨.